﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤﴾ [الشّورى: 33 - 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

في إجراءِ السُّفن وفي ركودهنَّ على السّواء آياتٌ لكلِّ صبّارٍ شكور

لَمّا ذكرَ آيةَ إجراء السُّفن العظيمة في البحر كالأعلام؛ أتبعها بآيةٍ أخرى لا تقلُّ عظمةً، وهي: إسكانُ اللّهِ للرّيحِ؛ لتَركُدَ هذه السُّفن، كما لو كانت قد فارقتها الحياةَ، فقال: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾، أي: جعلَ في إجراء السُّفن وفي رُكودِهنَّ على السّواء آيات لكلِّ صبّارٍ شكور.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسۡكِنِ﴾: أصلُ (سكن) خلافُ الحركةِ والاضطراب[1]، ويدلُّ على الاستقرار، وسكنَ الحَرُّ والرّيحُ والبَردُ: هدأ، وسكنَ، فلا يتحرَّك[2]، ومعنى ﴿يُسۡكِنِ﴾ في الآية موافِقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: يجعل الرّيحَ تهدأ، ولا تتحرَّك، وينقطع هبوبُها، فلا تجري السُّفن في البحر[3].

2) ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾: فِعلُ (ظلَّ) من أفعالِ الكَونِ، أخَواتِ (كانَ) الَّتي تدُلُّ على اتِّصافِ فاعِلِها بحالَةٍ لازِمةٍ، ويُستعمَلُ بمَعنى (صارَ)، وأصلُ (ظلل) يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيرِه[4]، وظلَّ يفعلُ كذا، أي: استمرَّ، وواصل، أي: لزومٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 541، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلل).

أو ملازمة[1]، ومعنى ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ في الآية: فيبْقَينَ ثوابتَ على ظَهرِ البَحر[2]، أو فيَصِرْنَ ثوابتَ سواكن لا تتحرَّك[3].

3) ﴿رَوَاكِدَ﴾: أصل (ركد) يَدُلُّ عَلى سُكونٍ، يُقالُ: رَكَدَ الماءُ: سَكَنَ، ورَكَدَتِ الرِّيحُ، أي: سكنَت، وكذلك السَّفينة[4]، والمعنى المحوريُّ: ثباتُ ما شأنُهُ الحركة في مكانه متجمِّعًا لا يبرح، وكُلُّ ثابتٍ في مَكانٍ، فهوَ راكِدٌ، والماءُ الرّاكدُ هو الدّائمُ السّاكنُ الَّذي لا يَجري[5]، والرَّواكِدُ: جَمْعُ راكِدَةٍ، والرُّكودُ: الاستقرارُ والثُّبوتُ[6]، والمعنى: فَيَظلَلْن وقوفًا ثوابتَ لا تجري، فلا تجيء، ولا تذهب[7].

4) ﴿ظَهْرِهِۦ﴾: أصلُ (ظهر) يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، والظَّهْرُ من كلِّ شيء: خِلافُ البَطْنِ، والأصلُ فِيهِ كُلِّه: ظَهْرُ الإنسانِ، وهو خِلافُ بطنِهِ[8]، والظَّهرُ يُطْلَقُ على أعلى الشَّيءِ إطلاقًا شائِعًا، يُقالُ: ظَهرُ البَيتِ، أي: سَطحُهُ، فَظَهرُ البَحرِ سَطحُ مائِهِ ووجهه البادي لِلنّاظِرِ[9].

5) ﴿صَبَّارٍ﴾: من (صبر)، وأصلُه مِن الحبسِ، يُقالُ: صَبَرتُ نَفسي عَلى ذَلِكَ الأمرِ، أي: حَبَستُها[10]، والصَّبّارُ: مَن حبسَ نفسَهُ عن التَّوجُّهِ إلى ما لا ينبغِي، ووكَّلَ هِمَّتَهُ بالنَّظرِ في آياتِ اللّه تعالَى والتَّفكُّرِ في آلائِه، وصبرَ على طاعةِ اللّه، أو هو كلُّ مؤمنٍ كاملٍ مُتَخَلِّقٍ بِخُلُقِ الصَّبْرِ عَلى الضَّرّاءِ، والشُّكرِ لِلسَّرّاءِ، فإنَّ الإيمانَ نصفه صبرٌ، ونصفُهُ شكرٌ[11].

6) ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾: أصلُ (وبق) هلكَ، ووبقَ يَوْبَقُ وبقًا؛ إذا تثبَّطَ، فهلك[12]، ووبقَ النَّباتُ من شدَّة الجفاف: هلَك، والموبقاتُ: الكبائر من المعاصي والذُّنوب المُهْلِكات، وكلُّ حاجِزٍ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلل).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 33.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 760.
(4) الرّاغب، المفردات: (ركد).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ركد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 257، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 33.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظهر).
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(10) مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (صبر).
(11) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 33، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وبق).

بَين شيئَين فَهوَ مَوْبِقٌ، وأوْبَقَه: حبَسَه، ومنهُ قولُه تعالَى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾، أي: يحْبِسُ السُّفُنَ ورُكّبانَها، فَلا تجري بهم؛ عُقوبَةً لَهُم[1]، والمعنى: أو يُهلكُهُنَّ بالغرق[2].

7) ﴿وَيَعْفُ﴾: أصلُ (عفو) يدلُّ على تَركِ الشَّيءِ، وكُلُّ من استَحَقَّ عُقوبَةً، فَتَرَكْتَهُ؛ فقد عَفَوْتَ عَنهُ[3]، والعَفوُ: الصَّفحُ عن الجاني وتَرْكُ عُقوبَةِ المُستَحِقِّ، والعَفو عن الذُّنوب: عَدَمُ المؤاخذة عليها، مِن عَفَتِ الرِّياحُ الأثَرَ، أي: دَرَسَتْهُ ومَحَتْه، وغالبُ ما في القرآن من هذا التَّركيب هو بمعنى الصَّفحِ[4]، ومعنى ﴿وَيَعْفُ﴾ هنا: يصفحُ عن كثيرٍ من ذنوبكم، فلا يعاقبُ عليها[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى ذكره: إن يَشَأ اللّهُ الَّذي قد أجرى هذه السُّفُن في البَحرِ ألّا تَجريَ فيه؛ يُسكِنِ الرِّيحَ الَّتي تُسَيِّرُ تلك السُّفُنَ، فيَثْبُتْنَ في مَواضِعِهنَّ على سَطحِ الماءِ، فلا يَتقَدَّمْنَ، ولا يَتأخَّرْنَ، إنَّ في ذلك الجري أو ما ذُكِرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيرِها ورُكودِها لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها، ويَعتَبِرُ كُلُّ مَن كان كَثيرَ الصَّبرِ، كثيرَ الشُّكرِ للّهِ تعالَى، أو إن يَشَأ اللّهُ؛ يُغرِقْ تِلك السُّفُنَ؛ بسَبَبِ ذُنوبِ أهلِها، ويَتجاوَزِ اللّهُ عن كَثيرٍ مِن الذُّنوبِ، فلا يعاقِب عليها[6].

بيانُ كمالِ قدرةِ اللهِ في إسكانِ الرّيحِ أو إرسالِها لرُكودِ السُّفنِ أو إغراقِها

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ عن الَّتي

في الاستئنافِ البيانيِّ بيانٌ لِما يُخوِّفهم من آيةِ جريانِ السُّفن في الماء

(1) الزّبيديّ، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (وبق).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 760.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عفو).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 543.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 541، و542، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 39.

قبلها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، ولم يأتِ بينهما بعاطف؛ لِما بينهما من شِبهِ كمالِ اتِّصال؛ إذ جاءتْ جملة: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ما قبلها يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ السّامِعين، وهو: وما تلكَ الآياتُ؟ فذكَرَ في الجوابِ ما يخوِّفهم منها، ويُعرِّفهم أنَّ جميعَ ما أباحهم إيّاه من شؤونها إنَّما هو بقدرته واختياره[1].

سرُّ التَّعبير بـ﴿إِن﴾ دون (إذا):

عبَّر البيانُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ بـ﴿إِن﴾ دون (إذا) الَّتي تُفيدُ القطعَ بوقوعِ الشَّيء وتيقُّنِ تحقُّقه؛ لكون هُبوبِ الرّيح سنَّةً كونيَّة لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل إلّا إذا شاءَ اللّهُ سبحانه، فقطعَ هبوبَها، أي: قد جعل اللّهُ هبوبَ الرّيحِ هو الأصل؛ لاستمرارِ حركة الحياة، وأمّا قطْعُها؛ فأمرٌ طارئٌ وفقَ تقديرِ الله سبحانه، كما أنَّه يوافقُ سُنَّةً أُخرى، وهي أنَّ رحمتَه سبقتْ غضبه.

هبوبُ الرّيح سنَّةٌ كونيَّةٌ لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل إلّا إذا شاءَ الله قطْعَ هبوبِها

دلالةُ التَّعبير بالفعليَّة ﴿يُسْكِنِ﴾ مضارعًا دون الاسميَّة:

التَّعبيرُ بالجملة الفعليَّة ﴿يُسْكِنِ﴾ دون الاسميَّة أنسبُ للمقام، فسُكونُ الرّيح أمرٌ طارئ يتجدَّد عند مشيئةِ الله لذلك، وليس أمرًا ثابتًا مستمرًّا، وإلّا لخالفَ سُنَّةً كونيَّة في خَلْق الرّيح، كما أنَّ في المضارع تصويرًا لحالةِ إسكان الرّيح وقطْعِ هبوبِها المُؤدّي لركود السُّفنِ وعدمِ جريانها.

سكونُ الرّيحِ أمرٌ طارئٌ يتجدَّدُ عند مشيئةِ الله لذلك

معنى اللّام في ﴿ٱلرِّيحَ﴾، ودلالتُها:

لامُ التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ جنسيَّةٌ؛ تدلُّ على جنسِ الهواءِ المتحرِّك القويِّ، الَّذي يكون سببًا في تسيير السُّفن الكبيرة في كلِّ مكان؛ لأنَّ السّياقَ هو سياقُ تذكير بنِعم الله على الإنسان في هذا

هواءٌ متحرّكٌ قويٌّ يسيِّرُ السُّفنَ الكبيرة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319.

الكون، وليستْ هنا عهديَّةً تدلُّ على العذاب، كما في قوله مثلًا: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: 24].

بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ في الآية:

الرّيحُ والرّياحُ للخير والشّرّ، ولا فرقَ بينهم

روي في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾، قراءتان مشهورتان، فقد قرأ الجمهورُ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد، وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿ٱلرِّيَحَ﴾ بصيغة الجمع[1]، وقد فرّق بعضُ العلماء بين لفظَي ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد، و﴿ٱلرِّيَحَ﴾ بالجمع.

وللتفريق بين معنيي القراءتين يمكن أن يقال: إنَّ (الرّيح) إذا ذُكرت مطلقةً فالغالبُ أن تكون في العذاب، و(الرّياح) إنِ استُعملت غيرَ مقيّدَةٍ فإنّ الغالبَ أن تكون للرّحمة[2]، وأمّا إذا قُيّدا بالإضافةِ أو بالوصف خرجا عمّا هو الغالبُ لنُكتةٍ، ولعلَّ النّكتةَ هنا أنّ قراءةَ الجمهور توجّهُ على ملاحظة صفةِ (العصف) الدّالّةِ على الشّدّة والقوّةِ والإهلاك، وقراءةَ غيرِهم توجّهُ على ملاحظة صفةِ السكون والرحمة.

وملمح بلاغي آخر في توجيه قراءة الجمع والإفراد هو اختلاف الجهة، فوجه القراءة بالجمع هو إتيانها من كل جانب، وذلك معنى يدل على اختلاف هبوبها، فهي رياح لا ريح؛ لأن الريح الواحدة إنما تأتي من جانب واحد، فكان لفظ الجمع فيها أولى، لتصرّفها من جهات فيكون لفظها مطابقا لمعناها في الجمع، ووجه القراءة بالتوحيد أن الواحد يدلّ على الجمع؛ لأنه اسم للجنس، فهو أخفّ في الاستعمال، مع ثبات معنى الجمع فيه[3].

تعدّد القراءات في ﴿ٱلرِّيحَ﴾ وثراء المعنى:

قرأ أبو جعفرٍ ونافع لفظ (الرِّيح) في قولِه تعالى:﴿إِن يَشَأْ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 02/ 223.
(2) ابن خالويه، الحجّة، ص: 91.
(3) مكّي، الكشف: 1/ 271.

تسكينُ الريحِ الشّديدة بالنسبةِ للمخلوق أعظمُ من تسكينِ الرياح الخفيفة

يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ بالجمْعِ: ﴿ٱلرِّيَحَ﴾، وقرأ الباقون ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بلَفْظِ المفْردِ[1]، وفي القراءةِ بلَفظِ المفرَدِ ما يدُلُّ على أنَّ الرِّيحَ قدْ تُطلَقُ بصِيغةِ الإفرادِ على رِيحِ الخيرِ، وأنّ ما قيل من أنَّ (الرِّياحَ) للخيرِ و(الرِّيحَ) للعذابِ في القُرآنِ هو غالبٌ لا مُطَّرِدٌ، وقدْ قُرِئَ في آياتٍ أُخرى (الرِّياحُ) و(الرِّيحُ) في سِياقِ الخيرِ دونَ العذابِ[2].

معنى الفاء ودلالتُها في: ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾:

إسكانُ الرّيحِ يتسبَّبُ عنه بقاءُ السُّفنِ ثوابتَ مستقرّاتٍ من غير سيْر

(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ﴾ عاطفةٌ[3] أو سببيَّة، أي: فتَسبَّبَ عن إسكانِ الرّيح أنَّ السُّفنَ العظيمة يَظلَلْنَ ثوابتَ مستقرّاتٍ من غير سير[4]، أو للتَّعقيب والمباشرة، بما يُظهِرُ كمالَ قدرةِ اللّٰه تعالى[5].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إزالةُ أيِّ عُسرٍ يواجهُ السُّفنَ حالَ سكونِها من كمالِ قدرة الله

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بـ﴿فَيَظۡلَلۡنَ﴾ دونَ (يَبْقينَ أو يَقُمنَ)، مع أنَّ أصلَ (يَظْلَلْنَ) الثَّباتُ والإقامةُ نهارًا؛ وإسكانُ الرّيح ورُكودِ السُّفن يكون في اللَّيل أو النَّهار؛ وذلك لأنَّ النَّهارَ مَوضعُ الاقتدارِ على الأشياءِ، وهو المُنتظَرُ عِندَ كلِّ مُتعسِّرٍ للسَّعيِ في إزالةِ عُسْرِه، وتَيسُّرِ أمْرِه[6]، ويجوزُ أن تكونَ (ظَلَّ) هنا بمعنى صار؛ لأنَّ المعنى ليس على وقتِ الظُّلول، وهو النَّهارُ فقط[7]، والتَّعبير بصيغةِ المضارع؛ للدَّلالة على تجدُّدِ حالةِ بقاءِ السُّفنِ ثابتاتٍ مستقرّات على ظهرِ البحر؛ إذا شاءَ اللّٰهُ ذلك، بما يدلُّ على كمالِ عَظَمَةِ قدرةِ اللّٰه سبحانه، وإثباتُ اللّامَيْنِ وفَتْحُ لامِهِ الأولى في الفعل (يَظْلَلْنَ)؛ يشيرُ إلى أنَّ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 223.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 105.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 39.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319.
(5) محمّد الهلال، التّفسير النّري: 25/ 41.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319.
(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 556.

السُّفنَ الكبيرة يَظللنَ على ظَهْرِ البحر ثوابتَ مستقرّات من غير سير ثَباتًا ظاهِرًا[1].

دلالةُ التَّعبير بالفاعل بنون النِّسوة في الفعل ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ و﴿يُوبِقْهُنَّ﴾:

نعمةٌ ورحمةٌ حوّلتها ذنوبُهم إلى نقمةٍ وعذاب

السُّفنُ في اللُّغة العربيَّة مؤنَّثةٌ مجازيَّة، تُعامَل معاملةَ المُؤنَّث في الأفعال والضَّمائر، ولذا فنون النِّسوة في ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ و﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ تعودُ على السُّفن، ويُشيرُ ذِكرُها في ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ إلى الرَّحمة حين تسكنُ الرّيح، فتصبحُ السُّفنُ آمنةً كالأُمِّ الحنون، وفي ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ إلى التَّذكيرِ بأنَّ هذه السُّفنَ كانت نعمةً، فأصبحت نقمةً بذنوبهم ومعاصيهم.

سرُّ اختيارِ صيغة ﴿رَوَاكِدَ﴾ خبر ظَلَّ:

التَّعبيرُ بخبر ظَلَّ جمعًا (رواكد) أبلغُ في تصويرِ الرُّكود التّامِّ والشَّديد

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿رَوَاكِدَ﴾ - وهو جمعُ راكدة - دون (راكدات)؛ للدَّلالة على الكثرة؛ إذ جمع التَّصحيح للعدد القليل، وجمع التَّكسير للعدد الكثير، فعبَّر بالأنسب للحال والواقع، ولتناغُم لفظ ﴿رَوَاكِدَ﴾ مع كلمات الآية الأُخرى، مثل: ﴿يُسْكِنِ﴾ و﴿ظَهْرِهِۦٓ﴾؛ إذ تحملُ جميعُها دلالاتِ الثِّقلِ والقوَّة، بينما (راكدات) قد تُضعِفُ هذا الإيقاعَ بسبب خفَّتِها النِّسبيَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

استقرارُ السُّفنِ على ظهرِ البحر وعدمِ غرقِها دليلٌ على قدرة الله

التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾؛ لإفادة الثَّبات والاستقرار على ظهرِ البحر وعدم الغَرق؛ بما يدلُّ على عظيمِ قدرة الله في حملِ الماء للسُّفن الكبيرة، أي: يَظللنَ ثوابتَ ثَباتًا ظاهِرًا.

سرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿ظَهْرِهِۦٓ﴾ دونَ (سطْحه):

آثرَ البيانُ الحكيم التَّعبيرَ بلفظ ﴿ظَهْرِهِۦٓ﴾ دونَ سطحه؛ للمبالغة في الدَّلالة على استقرارِ السُّفن وعدمِ غرقِها، فهي قائمةٌ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319.

شيءٍ صُلبٍ قويٍّ بارزٍ وظاهر، و(ظهر) أصلٌ يَدُلُّ عَلى قوَّةٍ وبُروزٍ، ومن ذلك: ظَهَرَ الشَّيءُ يَظْهَرُ ظُهورًا، فهو ظاهِرٌ، ولأنَّ الأصل فيه: ظَهْرُ الإنسانِ، وهو خِلافُ بَطْنِه، وهو يَجمَعُ البُروزَ والقوَّةَ[1]، وهو هنا استعارةٌ شاعتْ حتّى قاربتِ الحقيقة، فظَهْرُ البحرِ سطحُ مائِه البادي للنّاظر[2].

مبالغةٌ في الدَّلالةِ على استقرارِ السُّفن وعدمِ غرقِها وظهورِها وبُروزِها

سرُّ اختيار أحوالِ الفُلْك في البحر دونَ ما في البحر من المنافع الأخرى:

اختارَ البيانُ الحكيم ذِكْرَ أحوالِ الفُلْكِ في البحر دونَ ما في البحر من المنافع الأخرى؛ لكونها نعمةً ظاهرةً يراها كلُّ النّاس، ولا تحتاجُ إلى كثيرِ بحثٍ وتأمُّل، وهذا يناسِبُ سياقَ النِّعم الَّتي تذكرها الآياتُ، وهي كلُّها ظاهرةٌ غيرُ خفيَّةٍ كإنزالِ الغيث، وخَلْقِ السَّماوات والأرض وما خَلَقَ فيهما من دابَّة.

أحوالُ الفُلكِ أظهرُ من غيرها في إبرازِ كمال قدرةِ الله

سرُّ فصل جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ عمّا قبلها:

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ ذِكْرَ آياتِ جريانِ السُّفنِ الكبيرة في الماء أو إسكانها تستثير سؤالًا، مفادُه: لِمَن هذه الآيات، ومن الَّذي ينتفعُ بها؟ فجاء الفصْلُ لشبه كمالِ الاتِّصال؛ لأنَّ الجملةَ الثّانية وقعَتْ جوابًا نتجَ عن الجملةِ الأولى، فلم تُعطَفْ على الأولى، أو أنَّها جاءتْ كالتَّأكيد لِما قبلها، فهي ليستْ خبرًا مستقلًّا.

استئنافٌ بيانيٌّ يوضِّحُ المُنتَفعَ من آيات الله، وهو الصَّبّار الشَّكور

دلالةُ التَّأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ وبالجملة الاسميَّة:

أتى البيانُ القرآنيُّ بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ وبالجملةِ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ رغمَ كون المشركين في البحر يُخلصون الالتجاءَ إلى اللّه؛ لأنَّهم مع طُلوعِهم إلى البَرِّ يَنسُبونَ له شُرَكاءَ، فكانوا بذلك بمَنزِلَةِ مَن لا يَعُدُّ ذَلِكَ آيَةً أصْلًا؛ فَلِذَلِكَ أكَّدَ

تأكيدُ قدرةِ الله على ما ذَكَرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيْرِها ورُكودِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.

بـ(إنَّ)، أي: ما ذَكَرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيْرِها ورُكودِها مِمّا لا يَقْدِرُ عَليهِ إلّا اللّهُ سُبحانَهُ، بِدَليلِ ما لِلنّاسِ كافَّةً مِنَ الإجماعِ على التَّوَجُّهِ في ذَلِكَ إلَيهِ خاصَّةً والانخِلاعِ مِمّا سِواهُ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

تغلغُلُ الدَّلائلِ على قـدرةِ الله وتمكُّنُها فيما ذُكِـر مـن حـالِ السُّفن

عبَّر القرآنُ الكريم بـ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ للإشارةِ إلى قوَّة هذه الدَّلائلِ وتغلغلِها وتمكُّنِها فيما ذُكرَ من حالِ السُّفن في سَيرِها ورُكودِها، وعدمِ انفكاكِها عنها، وهذا أدعى للِحْظِها عند من تفكَّر، وتدبَّر.

دلالةُ تعريف الآيات باسم الإشارة للبعيد وتنكيرها ﴿ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾:

تصريفُ السُّفنِ جريًا ورُكـودًا لا يكون إلّا بقدرةِ مُـصرِّف الآيـات سبحانه

المشارُ إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ هو: جرْيُ هذه الجواري في البَحرِ بقُدرةِ اللّهِ؛ إذ سَخَّر لها البحرَ، وأجرَى لها الهواءَ[2]، أو ما ذُكِرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيرِها ورُكودِها[3]، والتَّعريفُ بأسلوب الإشارة تعظيمٌ للمشار إليه، والإشارة هنا بما يُشار به للبعيد؛ إيماءٌ إلى بُعْده عن مقدور البشر، وأنَّه لا يكون إلّا بقدرة مُصرِّف الآيات سبحانه، ومع التَّعظيم بالتَّعريف يأتي التَّعظيم بالتَّنكير، فهي آياتٌ عظيمة[4].

فائدةُ اللّام في قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾، وفائدةُ تنكيرِها وجمعِها:

تـأكـيـدُ الآيـات وتفخيمُها لِلَفتِ نـظـرِ المنكـريـن وعمومِ العقلاء إليها

لامُ ﴿لَآيَاتٍ﴾ للتَّوكيد، وهي واقعةٌ في اسم ﴿إِنَّ﴾ المُؤخَّر؛ لتأخُّره عن الخبر، وهو الجارُّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، وفائدةُ اللّام التَّوكيدُ؛ لِلَفتِ نظر المشركين المنكرين ونظرِ العقلاء عمومًا إلى هذه الآيات، وفائدةُ مجيء الآيات مُنكَّرةً، فلم يقل: (إنَّ هذه الآيات)؛ وذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 320.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 542، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 209، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 371.

(3) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 771، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 319، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.

(4) صلاح حبيب سليمان، من أسرار التّعريف والتّنكير في سورة الشّورى، ص: 280.

لتفخيمِ الآيات وتعظيمها، وجمعَ البيانُ الحكيمُ لفظَ الآيات، ولم يفردها؛ للدَّلالة على كثرةِ الآيات الدّالَّة على قدرة الله تعالى وعظمتها، بما يدلُّ على عظمةِ شُؤونِهِ ﷻ في تصريفِ السُّفن في البحر جَريًا ورُكودًا[1]، والمعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ عظيمةً في أنفسها، كثيرةً في العدد؛ دلالةً على باهر قدرته[2].

سرُّ اختيار ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ مادَّةً وصيغةً وتنكيرًا:

مبالغةٌ في الاتِّصاف بالصَّبرِ والشُّكر

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صيغةُ مبالَغَةٍ، أي: كثير الصَّبْرِ كَثِير الشُّكرِ، وقد عبَّر البيانُ الإلهيُّ بهذه الصّيغة؛ تناسبًا مع السّياق؛ لأنَّ أهوالَ البحرِ وشدائدَ الرّيحِ تحتاجُ إلى صبرٍ على صبر، وإجراءُ السُّفن يحتاجُ إلى شكرٍ كثير، وفي هذا تنويهٌ بحال المؤمن الَّتي يجبُ أن يكون عليها في السَّرّاء والضَّرّاء، ويُفيد التَّنكير في كلٍّ من ﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ العمومَ، وسَبْقُ النَّكرةِ بلفظ (كلٍّ)، وهو من ألفاظِ العموم يُدخلُ هذا العمومَ في دائرةٍ من الإحاطةِ والشُّمولِ لكلِّ ما يصلحُ أن يُطلَق عليه لفظُ ﴿صَبَّارٍ﴾ ولفظ ﴿شَكُورٍ﴾.

سرُّ تقديمِ ﴿صَبَّارٍ﴾ على ﴿شَكُورٍ﴾:

الصَّبرُ يسبِقُ الشُّكرَ ويُحتاجُ إليهِ

قدَّمَ النَّظمُ الحكيم الصَّبرَ على الشُّكر في قوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ لأنَّ الصَّبرَ على الشَّدائد والكُرَبِ يسبِقُ الشُّكرَ، فالمؤمنُ يحتاجُ إلى الصَّبرِ قبل أن يتمكَّن من شكرِ الله على نعمه، ممّا يُظهِر تسلسلًا منطقيًّا في التَّعاملِ مع المصاعب، والصَّبرُ نفسُه يحتاجُ إلى شكر[3]، وللتَّأكيد كذلك على أهمّيَّة الصَّبر كصفةٍ أساسيَّة يجبُ أن يتحلّى بها المؤمن.

بلاغةُ التَّذييل في الآية:

جُعِلتْ أحوالُ الفُلكِ في البحرِ آياتٍ لكلِّ صبّارٍ شُكورٍ؛ لأنَّ في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 42.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 221.
(3) محمّد هلال، التّفسير النّري: 25/ 41.

الحالتَين خَوفًا ونَجاةً، والخوفُ يَدْعو إلى الصَّبرِ، والنَّجاةُ تَدْعو إلى الشُّكرِ، والمرادُ: أنَّ في ذلك آياتٍ لكلِّ مُؤمنٍ مُتخلِّقٍ بخُلُقِ الصَّبرِ على الضَّرّاءِ، والشُّكرِ للسَّرّاءِ؛ فهو يَعتبِرُ بأحوالِ الفُلكِ في البحرِ اعتبارًا يُقارِنُه الصَّبرُ أو الشُّكرُ، وإنَّما جُعِل ذلك آيةً للمؤمنينَ؛ لأنَّهم هم الَّذين يَنتفِعونَ بتِلك الآيةِ، فيَعلَمونَ أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالإلهيَّةِ، بخِلافِ المشرِكينَ؛ فإنَّها تمُرُّ بأعيُنِهم، فلا يَعتبِرونَ بها[1]، وإنَّما عبَّر عن المؤمن بوصفي الصَّبر والشُّكر؛ للتَّنبيه على أنَّ المؤمِنَ يَجِبُ ألّا يَكونَ غافِلًا عن دَلائِلِ مَعرفةِ اللهِ البتَّةَ؛ لأنَّه لا بدَّ أن يكونَ إمّا في البَلاءِ، وإمّا في الآلاءِ؛ فإن كان في البَلاءِ؛ كان مِن الصّابِرينَ، وإنْ كان في النَّعماءِ؛ كان مِن الشّاكِرين[2]، وبيانُ ذلك في الآية أنَّ هذه السُّفُنَ إن جَرَت على ما يَنْبغي؛ فوَظيفةُ الإنسانِ الشُّكرُ، وإن جَرَت على ما لا يَنْبغي؛ فوَظيفتُه الصَّبرُ[3].

يَنتفِعُ بآياتِ اللهِ المشهودةِ العِيانيَّةِ أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ

دلالةُ عطف قوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ على جزاء الشَّرط:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عَطْفٌ على جزاءِ الشَّرط ﴿يُسْكِنِ﴾ بحرف العطف ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾، والتَّقدير: إن يَشَأ؛ يُسْكِنِ الرِّيحَ، فتركد الجواري على متن البحر، وتقف، أو يرسلِ الرّياحَ عاصفةً فيها، فيوبقهنَّ، أي: يهدِّدُهم اللهُ في البحر بإحدى بليَّتين؛ إمّا بسكون الرّيح، فتقفُ السُّفن رواكِدَ على ظَهْرِ الماء، فتتعطَّل مصالحُهم، أو يرسلُ الرّياحَ عاصفةً فيها، فيهلكنَ بسبب الإغراق[4]، ولهذا استعملَ حرفَ العطف ﴿أَوْ﴾ الَّذي يفيدُ التَّقسيمَ، دون الواو الَّذي يفيدُ الجمع؛ لأنَّ ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ قسيم

حالُ السُّفن في سيْرها وركودها لا يَقْدرُ عليه إلّا اللهُ سبحانه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 106.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 602.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 265.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 602.

﴿يُسْكِنِ﴾، ولكنَّه طوى ذِكرَ السَّبب في المعطوف؛ اقتصارًا على المقصود الَّذي هو الإيباق، أي: الإهلاك[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّمير في: ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾:

موقفُ الإهلاكِ الشَّديد وسرعتُه لا يتناسبُ مع الإطناب

الضَّميرُ في قوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يرجعُ إلى السُّفن الجواري في البحر، وقد آثرَ النَّظمُ الحكيم التَّعبيرَ به دون الاسم الظّاهر؛ اختصارًا، لأنَّه قد سبق ذكرُها، ولأنَّ موقفَ الإهلاك الشَّديدِ وسرعتَه لا يتناسبُ مع الإطناب بذِكر الاسم الظّاهر.

بلاغةُ التَّعبير بالمجاز العقليّ في: ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾:

خطرٌ يواجهُ السُّفنَ نتيجةً لأفعال أهلها

قولُه: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ فيه إيقاعُ الإيباقِ، أي: الإغراق على السُّفنِ الجَواري مع أنَّه حالُ أهلِهنَّ؛ للمُبالَغةِ والتَّهويلِ في إهلاكِ أهلِ هذه السُّفن[2]، ولتأكيد إرادةِ العموم في هلاك الرُّكّاب[3]، وهذا مجازٌ عقليٌّ[4]، يُعبِّرُ عن الخطرِ الَّذي يواجهُ السُّفنَ؛ نتيجةً لأفعال أهلها، وفيه تجسيدُ السُّفن ككائناتٍ حيَّةٍ تتأثَّرُ بأفعال أهلها، ممّا يُعطي بُعدًا إنسانيًّا للمَجاز، ويُعزِّزُ من تأثيرِ المعنى.

معنى الباءِ ودلالتُها في: ﴿بِمَا﴾:

المعاصي سببٌ لإغراقِ السُّفنِ الجَواري

الباءُ في قوله تعالى: ﴿يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ سببيَّةٌ، والمعنى: يُغْرِقْهُنَّ بِسَبَبِ كَسْبِهم، أو بسببِ ما كسبوا، والكسْبُ الَّذي يُؤدِّي إلى العقوبةِ هو المعاصي، إمّا بترْكِ الواجباتِ، وإمّا بفِعْلِ المُحَرَّماتِ[5]، وفي هذا تحذيرٌ من المعاصي، وبيانٌ أنَّها سببٌ للعقوباتِ[6].

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 245.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 33.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 321.
(4) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 245.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 322، وابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 266.
(6) ابن عثيمين، تفسير سورة الشّورى، ص: 268.

معنى (ما) ودلالتُها في: ﴿بِمَا﴾:

(ما) بين المصدريَّة والموصوليَّة بيانٌ لكسبهم السَّيّئ الَّذي أرداهم

(ما) في ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ إمّا مصدريَّة، والتَّقدير: أو يوبقهنَّ بكسبهم، وفي التَّعبير بالمُؤوَّل من (ما) المصدريَّة ومدخولِها ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ - بدل المصدر الصَّريح (كَسْبِهم) - إطنابٌ مُؤذِنٌ ببيانِ قُبْحِ عملهم، وتوكيدٌ؛ لأنَّ المصدرَ المُؤوَّل أقوى وآكَدُ في الدَّلالة على الحَدَثِ من المصدر المجرَّد؛ لكون فعلِ كسبوا ماضيًا يُفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ وانقضائه، أي: وقوعَ الذُّنوب والمعاصي من الرّاكبين في هذه السُّفن، أو موصولةٌ، والتَّقدير: أو يوبقهُنَّ بالَّذي كسبوا، وفي المصدريَّة إيماءٌ إلى وجهِ استحقاقِهم لحُكمِ هذا الجزاء من عقوبة الإغراق، وعلى كلا الاحتمالين فإنَّ في الأسلوب نصًّا على سببِ الهلاك، وهو الكسب السَّيئ؛ لأنَّ الباء سببيَّةٌ[1]، وهذا يتناسبُ مع ما أشارَ إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: 30].

سرُّ التَّعبير بـ﴿كَسَبُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

نفوسٌ أُشربت الذُّنوبَ، وصارت لها كالجبلَّة، فاستحقَّتِ الإيباقَ

عُبِّر بالفعل ﴿كَسَبُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ نفوسهم أُشرِبَتِ الذُّنوبَ والمعاصي حتّى صارت، وكأنَّها كالجِبلَّة لهم، واستمرّوا في ارتكابها، وجَدّوا، واجتهدوا فيها[2]، حتّى صارت دُرْبَةً، وأحلتها نفوسُهم، وكذلك في استعمالِ الكسب دونَ الاكتساب استعارةٌ تهكُّميَّة على طريقة قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21][3]، كما أنَّ القرآنَ عبَّر في الآية بالكسب دون غيره، فلم يقل: (أو يوبقهنَّ بما أذنبوا، أو أساؤوا)؛ تنبيهًا على أنَّ الكافر انتقلَ عن الفطرة الَّتي خُلق عليها، وكسب السَّيِّئات،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 39.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 322.
(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 9/ 441.

فصار كاسبًا لها، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ المؤمن سلكَ ما ينبغي، والكافرَ سلكَ ما لا ينبغي.

دلالةُ العطف في قوله: ﴿وَيَعْفُ﴾:

﴿وَيَعْفُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ عطْفٌ على ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾، فهو في معْنى جَزاءٍ للشَّرطِ المُقدَّرِ، أي: (وإن يَشَأ؛ يَعْفُ عن كَثيرٍ من النّاس الَّذين في هذه السُّفنِ الموبَقَة، بأن ينجيَهم بعَوْمٍ أو غيره، فلا يوبقهم مع استِحقاقِهم أن يوبَقوا)، وهذا العطْفُ اعتراضٌ[1]، وعُطِفَ بالواو؛ لأنَّ فعلَ الإنجاءِ قِسْمٌ من حالتي السُّفن الموبَقَة، وهو بمعنى ما رويَ عن أهلِ المدينة من نَصْبِ (يعفوَ) بتقدير (إنْ)؛ ليكون المعنى: يوقع إيباقًا وعفوًا[2].

إنجاءُ كثيرٍ ممَّن يستحقّون الإهلاكَ إحدى حالتَي السُّفنِ الموبَقَة

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل (يعفو) مادَّةً وصيغةً:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ (العفو) دونَ المغفرة في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾؛ لأنَّ العفو يُنبئُ عن المَحوِ والإزالة[3]، والمغفرةُ تُنبئُ عن السَّترِ والتَّغطية[4]، وإزالةُ الذَّنبِ ومَحوُهُ أبلغُ من سترِه وتغطيته، وعَفْوُه سبحانه عن كثيرٍ ممَّن يستحقّون الإغراق، أو عن النّاسِ عمومًا متجدِّدٌ؛ ولذا جاءَ التَّعبير بفعل المضارعة، وفي هذا بيانٌ لزيادةِ فضلِه على عبادِه، وإقامةٌ للحُجَّة عليهم.

في إزالةِ الذَّنبِ ومَحوِه وتجدُّدِ ذلك زيادةُ فضلٍ من اللهِ على عبادِه

بلاغةُ التَّعبيرِ بطريق المقابلة بين هذه الآية والسّابقة عليها في سكونِ الرّيح وإرساله:

قابلَ البيانُ القرآنيُّ في الآيتين الكريمتين بين سكونِ الرّيح وإرسالها؛ إذ التَّقديرُ هو: (إنْ يشأ؛ يُسكِنِ الرّيح، فيَرْكُدْنَ، أو يُرسلْها، فيوبق ناسًا، ويُنجِ آخرينَ بطريق العفوِ)، وفي هذه المقابلة

مقابلةٌ تُظهرُ عظَمةَ القدرةِ الإلهيَّةِ واتِّزانَ النِّعمِ والعقوبات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 107.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 322.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (عفو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).

بيانٌ لكمالِ قدرة الله المطلقة، الَّتي تجمعُ بين الأمانِ والإهلاك، وبين الحياةِ باستقرارِ السُّفن وسلامتِها، والإماتةِ بتدميرها وإغراقها، وبين النِّعمةِ والنَّقمة، فإمساكُ الرّيح نعمةٌ تُبقي السُّفنَ آمنةً، وإرسالُ الرّيح العاتية نقمةٌ تُهلكها، وبيانُ أنَّ اللّهَ هو المتصرِّفُ في الأضداد من السُّكون والعصف، والأمنِ والهلاك، أي: هو الَّذي لا يخرجُ شيءٌ عن مشيئته ﷻ، كما أنَّ هذه المقابلة ليستْ مجرَّدَ أسلوبٍ بلاغيٍّ، بل درسٌ عَقَديٌّ يُعلِّمُ المؤمنَ أنَّ النِّعمَ بيد الله، وهو قادرٌ على قلبها إلى نقم، وأنْ يتفكَّر في حكمةِ الله بين الأضداد، وأن يدركَ دقَّةَ القرآن في التَّعبيرِ عن التَّوازن الكونيِّ بقوَّة لغويَّةٍ مبهرة.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿عَن﴾:

من عظيم فضلِ اللهِ التَّجاوزُ وعدمُ المؤاخذة أصلًا

حرف الجَرِّ ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ للمُجاوزة، وهو يحملُ دلالةَ التَّركِ والتَّجاوزِ والإعراض، أي: يتجاوزُ عن كثيرٍ من الذُّنوب، ولا يُؤاخذُ به، ويُعرضُ عن أصحابها، ولو قيل: (وَيَعْفو مِن كَثِير)؛ لَكان المعنى أنَّه يُزيلُ بعض الذُّنوب، لكن ﴿عَن﴾ تُفيد التَّجاوزَ وعدمَ المؤاخذةِ أصلًا، فـ﴿عَن﴾ هنا أبلغُ؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ اللّهَ لا يُحاسِبهم أصلًا على كثير من الذُّنوب، لا أنَّه يمحوها بعد المحاسبة.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿كَثِيرٍ﴾، ودلالة تنكيرها:

سَعةُ رحمةِ اللهِ مع عظيمِ عَدْله

التَّعبيرُ بلفظ ﴿كَثِيرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ يُظهرُ الرَّحمةَ الإلهيَّة وسعةَ مغفرةِ الله؛ إذ يتجاوزُ عن كثيرٍ من الزَّلّاتِ، ولا يحاسبُ عليها، ولم يقل: (يعفو عن كلِّ شيء)، بل ﴿عَن كَثِيرٍ﴾؛ لأنَّ بعضَ الذُّنوب كالكبائر، تحتاجُ إلى توبةٍ بما يحقِّق مع الرَّحمة العدلَ فيها، ونُكِّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿كَثِيرٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾؛ لإفادةِ الكثرة الَّتي لا يُحصيها، ولا يُحيطُ بها إلّا عِلْمُ الله تعالى، وهذا يدلُّ على عظيم فضلِه وعَفْوِه، وأنَّ رحمتَه سبقتْ عذابَه.

سرُّ حذفِ موصوف ﴿كَثِيرٍ﴾:

إيجـازٌ وإظـهـارٌ لكـمـالِ عـفـوه، ودَفـعٌ في عظيمِ رحمته

اكتفاءُ البيانِ القرآنيِّ في قوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ بذِكرِ الصِّفةِ ﴿كَثِيرٍ﴾ عن ذِكرِ الموصوف؛ وذلك للإيجاز؛ لكونه مفهومًا من السّياق في قوله: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾، والكلامُ أبلغُ عندما يُختَصر مع وضوحِ المعنى، ولإفادةِ العموم، فـ﴿كَثِيرٍ﴾ قد تشملُ الذُّنوبَ والزَّلّاتِ والتَّقصيرَ، بل، وحتّى بعضَ العقوبات الدُّنيويَّة؛ ومنها الإغراق، كما أنَّ ذِكرَ موصوفٍ واحد يُقلِّل من شمولِ العفو الإلهيِّ، فاللّهُ يعفو عن ﴿كَثِيرٍ﴾ بلا تحديد، ممّا يوحي بسَعة رحمته ومغفرته، وللاهتمام والتَّركيز على الصِّفةِ والتَّأمُّل فيها، فَحَذْفُ الموصوفِ يجعل القارئ يتساءل: عن أيِّ كثير يعفو؟ فيتأمَّل في سَعة مغفرة اللّه.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(يُسْكِن) و(يوْقِف):

هـــدوءُ الـرّيـح الّتي من شأنها الحركة وقطعُ هبوبِها دليلٌ عـــلى قـــدرتـــه سبحانه

آثرَ البيانُ الحكيم لفظَ ﴿يُسْكِنِ﴾ دون (يوقف)؛ لكونه أنسبَ للسّياق، وأدلَّ على كمالِ قدرةِ اللّه تعالى، فالرّيحُ الّتي من شأنها الحركة - الّتي تحرِّكُ السُّفنَ الكبيرة العظيمة، فتجري في البحر بسرعة - اللّهُ قادرٌ على إسكانها وهدوئها، وذهابِ حركتها تمامًا، وقطعِ هبوبها، فيتسبَّب عن ذلك ركودُ السُّفن واستقرارُها على ظهر البحر، فإنَّ أصلَ (سَكَن) يدلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ والحرَكَة، وهو سكونُ الشَّيء واستقرارُه بعد تحرُّك[1]، بخلافِ (يوقف) فإنَّ أصله يَدُلُّ عَلى تَمَكُّثٍ فِي شَيءٍ[2].

الرُّكود والثَّبات:

الرُّكودُ: هو هدوءٌ وسكونٌ وثباتُ الشَّيءِ المُتحرِّك؛ إذ أصله يَدُلُّ عَلى سُكونٍ، ومعناه المحوريُّ: ثباتُ ما شأنهُ الحركةُ في مكانه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سكن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).

متجمِّعًا لا يبرح[1]، بينما الثُّبوتُ هو دوامُ الشَّيء على حالةٍ واحدة، وهو ضِدُّ الزَّوال؛ إذ أصله يدلُّ على الدَّوام[2]، وقد استُعمِلَ هنا لفظُ رواكد دون ثوابت؛ لكونه أنسبَ مع السُّفن الَّتي من شأنها الحركة، فيدلُّ على أنَّ المعنى: فَيَظْلَلْن وقوفًا ثوابتَ لا تجري، فلا تجيء، ولا تذهب، أي: غيرَ جارياتٍ، لا غيرَ متحرِّكاتٍ أصلًا[3]، وفي هذا بيانٌ للقدرةِ الإلهيَّة في إسكانِ السُّفن ووقوفِها في البحرِ، وعدمِ جريانها؛ إن شاءَ سبحانه، ممّا يدعو للتَّفكُّر في إنعامهِ سبحانه في هبوبِ الرّياح وجريان السُّفن.

من كمالِ قدرته سبحانه إيقافُ السُّفن وعدمُ جريانها في البحر؛ إن شاء

العفْو والصَّفح:

الصَّفحُ أبلغُ من العفو، فقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصْفَحُ، فالصَّفْحُ: تركُ التَّثريب وتركُ لومه، والعفو: تَرْكُ عُقوبَةِ المذنب[4]، بينما أصْلُ الصَّفح من (صفح)، وهو عَرْضُ الشَّيءِ وجانِبُهُ، ومِنهُ سُمّيَ العَفوُ صَفحًا؛ لأنَّ الَّذي يَصفَحُ كأنَّهُ يُقابِلُ المُسيءَ بِصَفحَةِ عُنُقِهِ إعراضًا عن إساءَتِه، أو يَتَجاوَزُ الصَّفحَةَ السَّيِّئَةَ، ويُقابِلُهُ بِالصَّفحَةِ الجَميلَةِ[5]، أي: تجاوزتُ الصَّفحَةَ الَّتي أثبتُّ فيها ذنبَه من الكتابِ إلى غيرها[6]، وقد استُعمِلَ لفظُ العفوِ هنا؛ لمناسبته للسّياق؛ وللدَّلالة على أنَّه سبحانه يعفو عن المُذنبين، فلا يؤاخذُهم بما كسبوا، فلا يغرقهم في البحر، وأنسبُ كذلك مع لفظِ ﴿كَثِيرٍ﴾؛ إذ إنَّه سبحانه يتركُ معاقبةَ المذنب في كثيرٍ من المواضع، ولا يؤاخذه عليها مباشرةً؛ تفضُّلًا منه وامتنانًا.

من تفضُّلِه سبحانه أنَّه لا يُعاقِبُ المُذنبين مباشرةً بما عملوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ركد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ثبت).
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 221.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 362.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(6) الرّاغب، المفردات: (صفح)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 421.

الإيباقُ والإهلاكُ:

هـــلاكٌ قـــويٌّ شديدٌ شاملٌ لا يَشِذُّ عنه أحدٌ، ولا خلاصَ لأحدٍ منه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ بالإيباق دون الإهلاك أو الإغراق؛ لأنَّ كلمةَ (يوبِق) تُعبِّر عن الهلاك القويِّ الشَّديدِ والشّامل والمفاجئ، الَّذي لا يَشِذُّ عنه أحدٌ، ولا خلاصَ لأحدٍ منه[1]، وفي هذا من العذاب ما فيه، فهو يشملُ مع الهلاك المادّيِّ الهلاكَ المعنويَّ، كما أنَّ التَّعبيرَ بهذا اللَّفظ يُضفي بُعدًا تصويريًّا على المعنى، ويُعَزِّز من تأثيره، وكأنَّهم وقعوا في مهلكةٍ وغرق أدّى إلى هلاكهم، ويُعطي توازنًا مع ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾؛ إذ يُظهر أنَّ اللّهَ قد يُعاقبُ البعضَ - بسبب أفعالهم - العقابَ الشَّديدَ، ولكنَّه في الوقت نفسه يُظهرُ رحمتَه وعفوَه عن الكثيرين منهم.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وبق).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"